

انتشار اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي في الأندلس وسيطرتها في الأدب العربي

الدكتور عبد الرشيد^١

محمد ابوبكر الصديق^٢

المخلص

اللغة العربية من أعظم أدوات النهضة الإسلامية، ومن أقوى الروابط التي جمعت شعوب العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب. وحين امتد الإسلام إلى الأندلس سنة ٩٢هـ / ٧١١م، دخلت العربية هذه الأرض الجديدة لا بصفتها لغة غزوٍ أو سلطة، بل لغة دينٍ وعلمٍ وثقافةٍ وإنسان. فقد جاءت العربية تحمل معها قيم القرآن الكريم، ومبادئ الفكر الإسلامي، وروح الحضارة العربية التي جمعت بين العقل والإيمان، وبين الأدب والعلم. ومنذ اللحظة الأولى، بدأت اللغة العربية في الأندلس تتجذر تدريجيًا في المجتمع الجديد، حتى أصبحت بعد فترة قصيرة اللغة الرسمية للإدارة والتعليم والأدب، بل لغة الحياة اليومية التي توحد الناس على اختلاف أصولهم وأديانهم.

لم يكن انتشار اللغة العربية في الأندلس حدثًا بسيطًا أو سريعًا، بل كان نتيجة تفاعل طويل ومعقد بين الدين والسياسة والثقافة والمجتمع. فقد لعب المسجد دورًا أساسيًا في نشرها، إذ كانت حلقات تحفيظ القرآن الكريم والحديث

١ الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، كلية جمال محمد تيروشيرابالي، بتابعة بهارد داسن
ينيورستي، الهند

٢ الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، كلية جمال محمد تيروشيرابالي، بتابعة بهارد داسن
ينيورستي، الهند

النبوي الشريف تُقام فيه يوميًا، مما جعل العربية لغة العبادة والعلم في آنٍ واحد. ومع تأسيس المدارس القرآنية والمراكز التعليمية في قرطبة وإشبيلية وطليلة وغرناطة، ازداد الإقبال على تعلمها، لأن من أراد العلم أو الفقه أو القضاء لم يجد طريقًا إليه إلا عبر إتقان العربية. ثم جاء دور الدولة الأموية في الأندلس التي جعلت العربية لغة الدواوين والضرائب والمراسلات الرسمية، فصار استعمالها شرطًا للتعامل مع الحكومة، مما جعلها تنتشر بين طبقات المجتمع المختلفة.

كذلك ساهمت الهجرات العربية والبربرية بعد الفتح في ترسيخ العربية داخل النسيج الاجتماعي للأندلس. فقد استقر العرب القادمون من الشام واليمن والمغرب في المدن الكبرى، بينما سكن البربر في القرى والأرياف، وكانوا جميعًا يتحدثون بالعربية كلغة موحدة بينهم. ومع مرور الوقت، تعلّمها السكان المحليون عن طريق الاختلاط والزواج والتجارة، حتى أصبحت لغةً مشتركة في الأسواق والمنازل والمساجد. ومع الجيل الثاني والثالث من السكان، صارت العربية لغة الأم لكثير من الأسر في المدن الكبرى، فانتقلت من كونها لغة رسمية إلى لغة شعبية حيّة تتفاعل مع المجتمع وتعبّر عن واقعه.

إن سيطرة العربية في الأندلس لم تكن مجرد تفوق لغوي، بل كانت ظاهرة حضارية متكاملة جمعت بين العلم والدين والفكر والأدب. فقد ساعدت العربية على توحيد المجتمع الأندلسي المتعدد الأعراق والديانات، وأتاحت لجميع سكانه أن يشاركوا في بناء حضارة راقية متوازنة. كانت العربية لغة الشعر والموسيقى والفكر والفلسفة، وكانت لغة السوق والتجارة والإدارة، فجمعت بين الرفعة الجمالية والفائدة العملية. وهكذا أصبحت الأندلس نموذجًا فريدًا للتعايش اللغوي والثقافي الذي تُدار فيه الدولة بلغة واحدة تعبّر عن روح الجميع، وتبني جسورًا بين الشرق والغرب، وتؤكد أن اللغة حين تحمل رسالة إنسانية صادقة تصبح أداة خالدة للحضارة والتاريخ.

تمهيد

بعد الفتح الإسلامي للأندلس، لم تكن العربية تدخل كقانون واحد يُفرض بالقوة فحسب، بل دخلت ببطء وثبات عبر مداخِل يومية وحياتية جعلت الناس يلتقون بها تدريجيًا. أول مدخل كان المسجد الذي لم يقتصر دوره على العبادة فقط، بل صار مدرسة تُعلّم القراءة والقرآن، والقراءة هنا تعني العربية؛ فتعليم القرآن دفع أجيالًا من الأطفال إلى تعلم الحروف والكلمات العربية، ومن ثم توسع هذا التعليم ليشمل مبادئ الكتابة والفقهاء، فترسّخت العربية كلغة دينية وتعليمية في الوعي الجماعي للمدن. وأن رواتب المسؤولين ودوائر الحكم اعتمدت العربية للرسائل والسجلات، فوجدت الأسر والحرفيون والتجار أن للعربية قيمة عملية تفتح لهم أبواب الوظيفة والتعامل^١.

وجانب آخر مهم هو الوجود الديموغرافي والثقافي: جلب الفتح أعدادًا من الجنود والمستوطنين الذين ناطقهم العربية أو تعلموها بسرعة، وهؤلاء استقرّوا في مراكز حضرية فأنشأوا أحياءً وبيوتًا تتكلم بالعربية، ثم اختلطوا بالسكان المحليين بالزواج والعمل والتعليم، فانتقلت العربية بصورة طبيعية عبر الحياة اليومية. كذلك لعبت المكتبات والمدارس العلمية في قرطبة وإشبيلية دورًا كبيرًا؛ لأن العربية أصبحت لغة العلم والكتابة، والطلاب والفقهاء والأطباء والمترجمين كلهم عاشوا تجربة مشتركة في نصوص عربية، ما جعل اللغة ليست أداة عبادة وإدارة فقط بل وعاءً للعلم والمعرفة. بهذا الشكل صار تعلم العربية مطلبًا للنخبة والطبقة الوسطى، لاختصار الطريق إلى المعرفة والوظيفة. مع تراكم هذه العوامل دينيًا، إداريًا، تعليميًا

١ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد المقرئ التلمساني، دار الصادر بيروت

واجتماعيًا، تضمن انتشار العربية تجاوبًا من الشرائح المختلفة، بل إن بعض المسيحيين واليهود في المدن بدأوا يستعملون العربية في التعاملات والكتابات، فظهر ما يُعرف بالإنتاج المستعرب الذي يدلّ على قبول اجتماعي أوسع للغة. ومع أجيال متعددة، تشكلت لهجات عربية محلية وبدأت العربية تطفئ في المراكز الحضرية على اللغات القديمة، بينما بقيت لهجات محلية في بعض الأرياف لفترة أطول. النتيجة النهائية كانت سيطرة فعلية للعربية كلغة يومية وثقافية في معظم نواحي الحياة الأندلسية، وهي سيطرة لم تكن وليدة قرار سياسي واحد بل نتاج تفاعل طويل لظروف متعددة.

العامل الديني: لا شك أن العامل الديني كان المحرك الأول والأقوى في انتشار اللغة العربية بالأندلس بعد الفتح الإسلامي سنة ٧١١/٥٩٢م. فالعربية هي لغة القرآن الكريم، وتعلّمها كان شرطًا لفهم الدين الجديد وإقامة شعائره. المسلم الجديد الذي دخل في الإسلام كان يحتاج إلى قراءة الفاتحة وحفظ بعض السور القصيرة، وكل ذلك بالعربية، مما جعل اللغة مرتبطة منذ البداية بقداسة الدين وروح العبادة. وقد أدرك الأندلسيون أن تعلّم العربية ليس مجرد وسيلة للتواصل، بل هو عبادة في ذاته، لأن قراءة القرآن لا تكون إلا بها. لذا ارتبطت عملية "التعريب" في الأندلس أول الأمر بالمساجد التي لم تكن فقط مكانًا للصلاة، بل مدارس أولية تعلّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن. ومن هذه المدارس نشأ جيل جديد من السكان المحليين المتقنين للعربية، وهو ما مهّد الطريق لتوسّعها في المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة.

هذا العامل الديني لم يقتصر على المسلمين وحدهم، بل امتد أثره إلى غير المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامي. فقد احتكّ المسيحيون واليهود يوميًا بالعربية في الأسواق والإدارة، لكن العامل الأهم أنهم كانوا يعيشون في وسط يتردد فيه القرآن والأذان والعبادات اليومية، مما جعل العربية جزءًا من البيئة السمعية واللغوية التي لا يمكن تجاهلها. بل إن بعض المسيحيين المعروفين باسم "المستعربين"

حرصوا على تعلّم العربية لأبنائهم لأنها صارت لغة الحياة العامة والهوية الثقافية، حتى وإن ظلّوا على دينهم. هذا الاندماج الجزئي كان دليلاً على قوة العربية كعنصر ديني وثقافي في آن واحد. وكان العلماء والفقهاء الأوائل في الأندلس أكبر داعمين لهذه العملية، فقد أنشأوا حلقات تعليمية في المساجد لتدريس الفقه والحديث والتفسير، وجميعها لا يمكن فهمها إلا بالعربية. ومع مرور الوقت تحولت الأندلس إلى مركز من مراكز الفقه المالكي، وكان لا بد لطالب العلم أن يتقن العربية ليستطيع استيعاب كتب الفقه والتفسير والحديث. هذا جعل اللغة العربية ليست فقط لغة النخبة أو رجال الدين، بل حاجة يومية لكل مسلم يريد أن يتعلم دينه أو يشارك في الحياة الثقافية والدينية. ومن هنا يمكن القول إن انتشار العربية في الأندلس لم يكن مجرد ظاهرة اجتماعية أو سياسية، بل كان في جوهره ظاهرة دينية أساسية، ارتبطت بالقرآن والعبادة والعلوم الشرعية، وهو ما منحها رسوخاً واستمرارية تفوقت على اللغات المحلية السابقة^١.

العامل السياسي والإداري: كان للسياسة والإدارة دور حاسم في نشر العربية وترسيخها لغةً رسمية في الأندلس. فمنذ استقرار الحكم الإسلامي، حرص الولاة والخلفاء الأمويون على أن تكون لغة المراسلات الرسمية والدواوين هي العربية، وذلك على غرار ما كان جارياً في المشرق بعد إصلاحات عبد الملك بن مروان. ومع مرور الوقت، صارت العقود والضرائب والقرارات السياسية لا تُكتب إلا بالعربية، مما أجبر التجار والموظفين والمزارعين الذين يتعاملون مع الدولة على تعلمها أو على الأقل إتقان أساسياتها. بهذا المعنى، لم تعد العربية مجرد لغة دين، بل أصبحت لغة الحكم والسيادة، ومن أراد أن يشارك في إدارة شؤون البلاد أو ينال منصباً، كان لا بد له أن

The Arabic role in medieval literary history, by Maria Rosa Menocal Published by ١

University of Pennsylvania Press, 1987

يجيد العربية قراءة وكتابة.

هذا الارتباط بالإدارة أعطى العربية قوة عملية مباشرة في حياة الناس. فقد أدرك السكان أن مستقبلهم الاقتصادي والاجتماعي مرتبط بإتقان لغة الدولة، مما دفع الكثير من أبناء الأسر النصرانية واليهودية إلى إرسال أبنائهم لتعلّم العربية حتى يتمكنوا من دخول سوق العمل أو الحصول على مناصب في الدواوين. وأن انتشار العربية في نظام القضاء والفتيا جعلها لغة القانون والعدل، وهو ما زاد من حضورها في المجتمع. وبذلك تحولت العربية إلى وعاء للسلطة السياسية والاقتصادية، تتداخل مع حياة الناس اليومية في أبسط تفاصيلها، من العقود التجارية إلى الأحكام الشرعية. ولعل الأثر الأعمق للعامل الإداري يكمن في أنه خلق نخبة مثقفة بالعربية من جميع الأجناس، فظهرت طبقة من الكتّاب والإداريين المحليين الذين برعوا في العربية، بل نافسوا العرب أنفسهم في بلاغتها وأساليبها. وقد ذكر المؤرخون أن كثيرًا من المستعربين شغلوا مناصب عليا في الدواوين، وأبدعوا في كتابة الرسائل الرسمية التي جمعت بين الفصاحة والمهارة الإدارية. هذا التفاعل جعل العربية لغة مشتركة لا تختص بالعرب وحدهم، بل لغة دولة ومجتمع، تُنظّم بها السياسة وتدار بها الحياة الاقتصادية والقضائية. ومن هنا نفهم أن السيطرة الإدارية والسياسية كانت واحدة من أهم الأدوات التي تثبتت العربية كلفة عليا في الأندلس لقرون طويلة^١.

العامل الأدبي: لم يكن انتشار العربية في الأندلس محصورًا بالدين والإدارة والتعليم، بل عزّزه عامل أدبي بالغ الأهمية، وهو مكانة التراث العربي القادم من المشرق. فقد حمل الفاتحون معهم تقاليد أدبية راسخة منذ العصر الجاهلي وصدر الإسلام، إضافة إلى منجزات الدولة الأموية والعباسية في الشعر والنثر. هذه الثروة الثقافية جذبت النخب الأندلسية بسرعة، لأنها قدّمت للعربية صورة لغة رفيعة

١ تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس لشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة

المستوى، ليست مجرد أداة تواصل يومي، بل وعاءٌ للأدب والحكمة والتاريخ. ومع انتقال دواوين الشعر العربي من المشرق إلى الأندلس، بدأت حلقات التعليم والأمراء والأدباء يحتفون بالعربية باعتبارها لغة الفن والجمال، وهو ما جعلها تتجاوز حدود الاستعمال العملي لتصبح رمزاً للهوية والترف الثقافي.

وقد انعكس هذا العامل في انتشار حلقات الأدب والبلاغة في القصور والمجالس، حيث كان الخلفاء والأمراء يتباهون برعاية الشعراء والكتاب. فعبد الرحمن الناصر والمستنصر بالله وغيرهما من خلفاء قرطبة جعلوا من العربية لغة المديح الرسمي والسياسة الثقافية، بل إن التنافس بين الأمراء في الأندلس اتخذ طابعاً أدبياً، حيث كانوا يستقطبون الأدباء والشعراء لإظهار التفوق الثقافي إلى جانب السياسي. هذا الدعم جعل العربية تنمو بسرعة، لأنها لم تُعد فقط لغة الإدارة أو العبادة، بل صارت لغة الفخر الاجتماعي والهيبة السياسية. كل من أراد الاقتراب من البلاط أو المشاركة في الحياة الثقافية الراقية كان عليه أن يتقن العربية ويبدع بها.

والأهم أن العربية صارت لغة الإبداع المحلي أيضاً، فلم تعد محصورة في استيراد الأدب المشرقي، بل ظهر في الأندلس جيل من الشعراء والأدباء الذين جعلوا العربية أداة لتصوير بيئتهم وتجاربهم الخاصة. ومن خلال الموشحات والزجل، أبدع الأندلسيون أشكالاً أدبية جديدة أثبتت أن العربية قادرة على التكيف مع كل بيئة وإنتاج أدب مبتكر. هذا أعطى السكان ثقة أكبر بأن العربية ليست لغة مفروضة من الخارج، بل لغة متجذرة في حياتهم اليومية وقادرة على التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم. وهكذا أصبح التراث العربي، مع ما أضيف إليه من إبداع أندلسي، عاملاً رئيسياً في ترسيخ العربية وسيطرتها على المشهد الثقافي والأدبي في الأندلس.

العامل الاجتماعي: الدين والسياسة والتعليم، لعب دوراً كبيراً في انتشار العربية بالأندلس، خاصة من خلال التمازج اليومي بين المسلمين والمسيحيين واليهود. فالمدن الكبرى مثل قرطبة وطليطلة وغرناطة لم تكن منغلقة على طائفة واحدة، بل عاش فيها الجميع ضمن نظام اجتماعي عرف باسم أهل الذمة. هذا النظام أتاح لغير

المسلمين مساحة من الحرية مقابل الجزية، وفي ظل هذا التعايش كانت العربية اللغة المشتركة التي تضمن التواصل بين السكان. فالتاجر المسيحي الذي يبيع بضاعته في السوق، أو الطبيب اليهودي الذي يعالج مسلماً، كان يحتاج إلى العربية للتفاهم وإنجاز المعاملات. ومن هنا أصبحت العربية لغة الحياة اليومية المشتركة التي لا غنى عنها للتواصل بين مختلف الطوائف^١.

ومن أبرز الشواهد على هذا التفاعل اللغوي والاجتماعي ظاهرة المستعربين، وهم المسيحيون الذين ظلوا على دينهم لكنهم تبنوا العربية لغةً للحياة والكتابة. فقد تركوا لنا نصوصاً بالعربية في موضوعات دينية وأدبية، بل كتبوا الشعر والنثر بها، وهو ما يدل على عمق انتشارها في مجتمعهم. وأن بعض هؤلاء المستعربين شاركوا في نقل التراث العربي إلى أوروبا من خلال الترجمة، مما جعل العربية لغة مشتركة بين الأديان والثقافات. وهذه الظاهرة الفريدة تؤكد أن السيطرة العربية لم تكن مجرد سيطرة سياسية أو دينية، بل كانت نتيجة اندماج اجتماعي جعل اللغة وسيلة للتعايش المشترك. ومع مرور الزمن، صارت العربية عامل اندماج اجتماعي حقيقي، لأنها أعطت هوية مشتركة لسكان الأندلس، حتى وإن اختلفت أديانهم. فالمسلمون رأوا فيها لغة القرآن والفقه، والمسيحيون اعتبروها وسيلة للحياة الاقتصادية والثقافية، واليهود وجدوا فيها لغة العلم والفلسفة، حتى إن الفيلسوف اليهودي الشهير موسى بن ميمون ألف معظم كتبه بالعربية. وهكذا تحولت العربية إلى لغة عابرة للحدود الدينية، تُستعمل في الأسواق والمجالس والجامعات، فربطت بين الناس وأعطت للأندلس شخصية ثقافية موحدة.

العامل الاقتصادي والتجاري: من العوامل التي عززت مكانة العربية في

The rise and fall of the party-kings: politics and society in Islamic Spain by David ١

Wasserstein published by Princeton University Press, New Jersey 1985

الأندلس وأعطتها حضورًا قويًا في حياة الناس اليومية هو العامل الاقتصادي والتجاري. فالتجارة كانت شريان الحياة في المدن الأندلسية الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة، وكان التجار يأتون من مختلف الأديان والأعراق: مسلمون، نصارى، يهود، ومستعربون. وبما أنّ الدولة الإسلامية جعلت العربية لغة العقود والضرائب والقيود التجارية، صار لا بد من التعامل بها لإبرام الصفقات وضمان الحقوق. وهكذا ارتبطت العربية مباشرة بمصالح الناس الاقتصادية، فمن أراد أن يبيع أو يشتري أو يكتب عقدًا أو يوقع اتفاقًا، وجد نفسه محتاجًا إلى اللغة العربية. هذا الجانب العملي جعلها لغة معيشية يومية لا يقتصر استعمالها على حلقات العلم أو ساحات العبادة، بل في الأسواق والورش والدكاكين. إضافة إلى ذلك، كان للأندلس موقع استراتيجي في طرق التجارة العالمية، فهي حلقة وصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وبين أوروبا وإفريقيا. هذا الموقع جعلها محطة رئيسية للتجار القادمين من المغرب والمشرق وأوروبا. ولكي تتم هذه المعاملات التجارية بيسر، أصبحت العربية لغة مشتركة للتواصل بين التجار، خصوصًا في الموانئ الكبرى مثل إشبيلية ومالقة. وقد أدى ذلك إلى أن يتعلم الأوروبيون الذين يزورون الأندلس شيئًا من العربية ليسهل عليهم البيع والشراء. بل إن بعض الوثائق التجارية التي عُثر عليها مكتوبة بالعربية تؤكد أن اللغة كانت أداة موثوقة لإثبات العقود وتوثيق التعاملات بين الأطراف المختلفة.

لعبت الضرائب والمالية العامة دورًا في نشر العربية، إذ كانت الدولة تسجّل جباية الضرائب والجزية في سجلات عربية، وتتعامل مع التجار عبر عقود مكتوبة بالعربية. هذا النظام جعل فئة واسعة من السكان، خصوصًا من أصحاب الأراضي والتجار الكبار، يتجهون لتعلم العربية أو توظيف كتّاب يجيدونها. ومن خلال هذا الاحتكاك المستمر تحولت العربية إلى لغة الاقتصاد والمال، فلا يمكن تصور حياة اقتصادية مزدهرة في الأندلس بدونها. وهكذا صارت اللغة العربية لغة السوق بامتياز، تضبط التعاملات وتسهّل المبادلات، وتربط بين مختلف الأعراق والأديان

تحت مظلة اقتصادية واحدة. وهذا البعد الاقتصادي ساعد في ترسيخها أكثر، لأنها لم تُفرض بقوة الدولة فقط، بل لأن الناس أنفسهم وجدوا فيها أداة ضرورية لمصالحهم ومعيشتهم اليومية .

النتيجة اللغوية: مع استمرار العربية في الانتشار بالأندلس عبر الدين والسياسة والتعليم والتجارة، نشأت نتيجة طبيعية لهذا الامتزاج وهي ظهور لهجة عربية أندلسية خاصة. هذه اللهجة لم تكن بعيدة عن الفصحى، لكنها تأثرت باللهجات العربية القادمة من الشام واليمن والمغرب، واختلطت أيضًا باللغات المحلية القديمة مثل اللاتينية المتأخرة واللهجات الرومانسية والإيبيرية. والنتيجة أن العرب الأندلسيين طوّروا أسلوبًا لغويًا خاصًا بهم في النطق والمفردات والتراكيب. وقد وصلنا كثير من الشواهد على هذه اللهجة في الشعر الشعبي مثل الزجل والموشحات، حيث كان الشعراء يدمجون بين الفصحى ولهجتهم المحلية لإنتاج نصوص قريبة من الناس وسهلة الغناء والتداول. لقد كانت هذه اللهجة الأندلسية انعكاسًا لواقع اجتماعي متنوع، ففي لغة الناس في الأسواق والمنازل والمجالس الشعبية، بينما ظلت الفصحى لغة الأدب الرسمي والفقهاء والدواوين. هذا التوزع بين الفصحى واللهجة خلق ثنائية لغوية "Diglossia" واضحة في المجتمع الأندلسي. وذلك لم تكن اللهجة مجرد أداة كلام يومي، بل دخلت إلى الأدب الراقى من خلال الموشحات والزجل، حتى أصبحت لها قيمة فنية وجمالية. ويؤكد بعض الباحثين أن هذه التجربة الفريدة منحت الأدب الأندلسي طابعه المميز، لأنها جعلته أكثر التصاقًا بالواقع الاجتماعي والحياة اليومية مقارنة بأدب المشرق.

وأن هذه اللهجة لم تظل محصورة داخل الأندلس، بل كان لها أثر في اللغات الأوروبية نفسها. فقد انتقلت كثير من الألفاظ العربية الأندلسية إلى الإسبانية والبرتغالية، خاصة في مجالات الزراعة والعلوم والهندسة. كلمات مثل "Aceituna" (زيتون) و "Alcázar" (القصر) و "Azúcar" (سكر) كلها تعود إلى العربية الأندلسية. وهذا يؤكد أن العربية لم تكن مجرد لغة دين أو سياسة، بل لغة حياة يومية دخلت

في وجدان الناس، وتركت بصماتها حتى بعد سقوط الحكم الإسلامي. وبذلك نستطيع القول إن اللهجة العربية الأندلسية كانت التجسيد الواقعي لسيطرة العربية، لأنها مثلت الامتزاج اللغوي والاجتماعي، وأثبتت قدرة العربية على التكيف والإبداع في بيئة جديدة تمامًا.

أثر العربية على الأقوام غير المسلمة: من الظواهر المميزة في الأندلس الإسلامية أن العربية لم تقتصر على المسلمين وحدهم، بل أصبحت لغة مشتركة لليهود والمسيحيين أيضًا. فقد عاش هؤلاء الأقوام في ظل الحكم الإسلامي في إطار نظام "أهل الذمة"، الذي منحهم حرية ممارسة دياناتهم مع بقاء العربية لغة الدولة والاقتصاد. وبمرور الوقت، وجد اليهود والنصارى أنفسهم أمام واقع جديد: إذا أرادوا أن يشاركوا في الحياة الثقافية والاقتصادية، كان لا بد لهم من تعلم العربية. وهكذا ظهر جيل كامل من المثقفين غير المسلمين الذين تبناوا العربية لغة كتابة وتفكير، حتى أصبحت جزءًا أساسيًا من هويتهم اليومية. اليهود على وجه الخصوص تأثروا بالعربية بعمق، فالفيلسوف الشهير موسى بن ميمون كتب معظم مؤلفاته الكبرى مثل دلالة الحائرين بالعربية، قبل أن تُترجم إلى العبرية واللاتينية. وهذا يعكس أن العربية لم تكن مجرد لغة تواصل عند اليهود، بل لغة فلسفة وعلم ودين. كذلك كتب علماء اليهود في الطب والفلك بالعربية، وشاركوا في حركة الترجمة الكبرى التي نقلت المعارف إلى أوروبا. أما المسيحيون المستعربون، فقد أنتجوا نصوصًا دينية وأدبية بالعربية، بل إن بعضهم ألف شعراً يجمع بين الرموز المسيحية والأسلوب العربي. هذه الظاهرة المستعربة تدل على أن العربية لم تكن مجرد لغة "الغالب"، بل صارت لغة مثقفة

قادرة على حمل عقائد وأفكار غير المسلمين أيضًا. هذا التداخل الثقافي خلق ما يشبه ثقافة مشتركة بين سكان الأندلس، إذ صار اليهود والنصارى يتذوقون الشعر العربي، ويستعملون أمثال العرب، ويكتبون رسائلهم ومذكراتهم بالعربية. وبفضل هذه الظاهرة، وصلت إلينا مخطوطات نصرانية ويهودية بالعربية، تمثل مزيجًا بين هويتهم الدينية ولغتهم الثقافية. بل إن كثيرًا من المصطلحات العربية دخلت اللغة العبرية واللاتينية في الأندلس، وهو ما أثبت أن العربية كانت قوة لغوية جامعة لا تفرق بين مسلم وغير مسلم. ويمكن القول إن نجاح العربية في احتواء هذه الأقوام المختلفة هو أحد أسرار استمرارها وسيطرتها في الأندلس طوال ثمانية قرون.

الخاتمة

عندما ننظر إلى مسار العربية في الأندلس منذ الفتح الإسلامي سنة ٩٢هـ/٧١١م وحتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، نجد أن سيطرتها لم تكن مجرد هيمنة لغوية عابرة، بل ظاهرة حضارية معقدة تستحق الإعجاب والدرس. فقد اجتمعت في العربية عناصر الدين والسياسة والعلم والتجارة لتجعل منها لغة شاملة تنظم حياة المجتمع كله. إنها لغة القرآن والعبادة، ولغة الدولة والإدارة، ولغة المدارس والمكتبات، ولغة السوق والاقتصاد، حتى أصبحت اللغة المشتركة التي تضمن التواصل بين المسلمين والمسيحيين واليهود. هذا التعدد الوظيفي هو ما يجعل السيطرة العربية معجبة ومهمة؛ لأنها لم تفرض نفسها بالقوة وحدها، بل تبنتها الشعوب بإرادتها لأنها وجدت فيها المنفعة الدينية والدينية.

وإذا نظرنا إلى الأثر الحضاري، فإن العربية لم تقتصر على توحيد سكان الأندلس داخليًا، بل صارت جسرًا حضاريًا عالميًا بين الشرق والغرب. عبرها انتقلت الفلسفة والطب والفلك والرياضيات من الإغريق والهنود إلى أوروبا، فأصبحت رافدًا رئيسيًا للنهضة الأوروبية. وأن الأدب الأندلسي، من الموشحات والزجل إلى الموسوعات العلمية والتاريخية، أثبت أن العربية قادرة على التجدد والإبداع في بيئات متنوعة.

لهذا فإن سيطرتها في الأندلس تظل معجبة ومهمة لأنها قدّمت للعالم مثالاً حيّاً على كيف يمكن للغة أن تتحول إلى وعاء حضاري، يوحد مجتمعاً متنوعاً، ويترك أثراً عميقاً في مسيرة الإنسانية جمعاء. من خلال هذا العرض المفصّل لانتشار اللغة العربية في الأندلس بعد الفتح الإسلامي، يتضح أن السيطرة العربية لم تكن مجرد حدث سياسي أو ديني، بل كانت عملية حضارية متكاملة تداخلت فيها عوامل الدين والسياسة والهجرة والتعليم والتجارة والثقافة. فقد بدأت العربية كلغة قرآن وعبادة، لكنها سرعان ما تحولت إلى لغة الدولة والإدارة، ثم أصبحت لغة المدارس والمكتبات وحلقات العلم، وصولاً إلى الأسواق والمعاملات التجارية. ومع كل جيل جديد، توسعت دائرة مستخدمي العربية حتى شملت المسلمين والمسيحيين واليهود، وظهرت لهجة عربية أندلسية خاصة، واندمجت في نسيج الحياة اليومية. هذه الصورة الشاملة تكشف أن العربية في الأندلس كانت أكثر من مجرد لغة، بل كانت هوية حضارية ونظاماً اجتماعياً متكاملًا.

المصادر والمراجع

١. نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد المقرّي التلمساني، دار الصادر بيروت ١٩٨٨ م
٢. The Arabic role in medieval literary history, by Maria Rosa Menocal
Published by University of Pennsylvania Press, 1987
٣. تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات الأندلس لشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة
٤. The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West by George Makdisi, Published by Edinburgh University Press 1981
٥. The rise and fall of the party-kings: politics and society in Islamic Spain by David Wasserstein published by Princeton University Press, New Jersey 1985